

وأقبل الرومِيُّ الشيخ على عتيبة يشكر له مِنَّتَه، فَحَجَلَ الفتى؛ علامَ يشكره؟ لقد كفه مُكْرَهًا ثم لم يَسلم بعدُ من الندم على ما فعل ...

وكان الشيخ يلحظه بعينين فيهما إشفاقٌ وحُبٌّ ورحمة، وقد وقف الأسيران العربيَّانَ بينهما يشهدان ويسمعان صامتين، وكان مسلمة عبد الملك في مجلسه القريب منهم يرى ويسمع صامتًا كذلك، ثم نطق: أيها الشيخ، قد عَلِمنا ما حَمَلَ هذا الفتى العربي على كفالتك؛ فإن العرب — ما علمت — أهل مروءةٍ ونجدة، فما حملك أنت على الركون إليه دون من حوله من الجُند؟

— رأيت في وجهه مخايلٌ نُبل.

— ولم تر هذه المخايل في غيره من العرب؟

— ورأيت عاطفةً تدفعني إليه، فكأنما سمعتُ صوتًا يُناديني إليه.

— لأمرٍ ما ...

— لأن فيه ملامح من وجهٍ ما زلتُ أَلْتَمِسُ مثله في الناس فلا أرى!

— وجه عربي؟

— وجه فتاة روميّة.

— فتاة!

— ابنتي ...

— ما لنا ولابنتك يا شيخ؟

— استبأها عربيٌّ في أبيدوس منذ بضع وعشرين سنة، ومضى بها ...

— من أبيدوس أنت يا شيخ؟

— بطريق أبيدوس ... البطريق قسطنطين.

— قسطنطين ...

واعتدل الأمير في مجلسه وشحب وجهه، ونالت صوته حُبْسَةً فلم ينطق ...
وذهل الفتى ودار رأسه ... بعضُ هذا الذي يسمُعُ قد سبق إلى وهمه منذ لحظات،
أتكون أمه بنت هذا البطريق؟ ولكنها لم تعترف بأنها روميّة، ولم تُنكر أيضًا ... يا
للمفاجأة العجيبة! لقد وعد نوار أن يمهرها تاجَ بطريقٍ رومي، وأن يُخْدِمها ابنته ...
أكان يعني أن يجعل رأس جدّه مهر عروس؟ وأن يجعل في خدمتها أمه أو خالته؟ ...
وثَقُلَ الموقفُ على كل من يرى ...

الأميرُ ضيقُ النفس، ولكنه لا يستطيع في مجلسه حَزَاكًا.